عين بئر الخادم المعيارية الفنية والمرجعيات القيمية

دة./ سعاد بن شامة

المركز الجامعي– تيبازة

s.benchamma17@gmail.com

الملخص:

تعدّدت المنشآت المائية في مدينة الجزائر وفحوصها خلال الفترة العثمانية، منها التي كانت في المسالك (الطرق) التي ربطتها بالمدن حولها، والتي نستدل بها هي عين "سبيل" بئر الخادم (الجزائر)، هي من العينات الماثلة، التي تحتفظ بتصميمها الأصلي ، وفن عمارتها المميّز للصورة النمطية للعيون "الأسبلة" في الجزائر خلال الوجود العثماني.

إنّ البحث في موضوع عين بئر الخادم من الناحية الأثرية يجرنا أيضا إلى تفحّص تدخل المرجعية الدينية الإسلامية وكذا رجاء ثناء وتقدير الأهالي لمؤسسيها، والتي كانت حافزا على تقديم الخدمة لعابري السبيل، من شرب وراحة، وبالتالي الأخذ بنهج التعمير لفضاءات الفحص والذي اعتمده الحكام. فاجتمعت لهذه العين قيم، منها تاريخية ودينية وفنية – معمارية وزخرفية – تحمل الكثير من الرمزية والدلالات.

ارتبطت العيون بالماء، المورد الحيوي الذي جهزت له الوسائل لتسهيل تغذية مختلف المنشآت به، و رغم أنّه مجال يعرف صعوبة في دراسته لارتباطه بالجانب التقني، تتدخل الأبحاث الأثرية في كشف الكثير من الغموض الحاصل فيها.

الكلمات المفتاحية: العيون؛ الأسبلة؛ بئر الخادم؛ الفترة العثمانية.

Abstract:

There were many water installations built in the city of Algiers and throughoutits suburbs during the Ottoman era.Some of them were erectedin roads (pathways) that linked them to the cities around them. In this paper we intend to highlight thepublic drinking fountain “path” of Bir el-Khadem (Algiers), which is one of the many fresh examples of fountains which preservedits originaldesign and its distinctive ottoman architecture and which is typicalto the fountains “path”installed in Algeria during the Ottoman presence.

The research on the subjectof Bir el-Khadem fountain from an archaeological stand point also leads us to examine the involvement of the Islamic religious believes and rituals, as well as the people’spraise and appreciation for its founders, which was an incentive to provide service topassers-by, in terms of drinking and rest, and thus taking reconstruction approach to suburban areas, which was adopted by the rulers. So indeed,this fountain gathered values, including historical, religious and artistic - architectural and decorative - bearing a lot of symbolism and connotations.

Fountains are associated with water, a vital resource for which all means were utilized to facilitate the feeding of various facilities with it, and although it is a field known of its difficultiesfor study due to the close connection to technical aspects, archaeological research helps in revealing and clarifying many of the its ambiguities.

key words : Al-Ayoun; path , Bir El-Khadem; the Ottoman period.

مقدمة:

إنّ ما تحقق من انجازات معمارية في الجزائر خلال العهد العثماني لهو من تكامل التصورات للعمران وتوازنه، حيث لم يعرف استثناء فصل دواعي تقديم الخدمات الخيرية العامة عن الإعتناء بالمنشآت المعمار ية الأخرى، فكانت العيون – الأسبلة – من جملة الهياكل المعمارية التي عرف تصميمها طرزا وتطورا. وإن الاهتمام بعمارتها لدليل على الوعي التام بضرورة تقديم النفع للفرد والعامة على السواء، حيث وفرة الماء يمكن أن تعد مقياسا لسعة العيش والتمسك بالموضع والموطن، ولأن استمرار الرخاء هو أيضا مرتبط ارتباطا كبيرا بهذا المورد الحي "وجعلنا من الماء كل شيء حي"[1] وقد شدّت انتباهنا عين بئر الخادم، وبقدر ما ننبهر لتصميمها المعماري جلبت انتباهنا أيضا اللوحة التذكارية التي تتصدرها وكأنها تحرسها. وهي من الشواهد التي نستدل بها على ما صبغ المسار المعاشي بمظهر من المظاهر الدالة على التحضر.

إنّ وعينا بوضوح البساطة والجمال والرقة في كل رفيع ودقيق متقن، تأكيد على تلكم المقدرة في الضربات الفنية لتشكيل المواد تقنيا وزخرفيا والتي أنتجت تحفا معمارية، وهي حقيقة صورية لمظاهر التمدن عززت التأريخ للمدن الجزائرية خلال الفترة العثمانية لما تحمل من معطيات علمية تجمع بين التاريخية والأثرية والتقنية.

إنّ الإشكالية البحثية التي اقتضاها محور دراسة العين، نرى فيها أن محاولة الإلمام بما تعلق بإنشاء العيون – الأسبلة – بالاقتصار على عينة واحدة هو ضرب من المجازفة العلمية، نظرا لتشابك وتداخل جوانب يمكن أن تكشف جانب معين لتلك المنشآت من خلال تحاليل ودراسات تاريخية وأثرية معمارية وفنية ومواد بناء. ويبقى مجال البحث الرئيسي هو البحث في استجابة التصميم للوظيفة وانسجامه مع جماليته، كما أنّ البحث موجه للكشف إذا يمكن اعتبار السبيل مؤشر لحركية وفعالية الفحوص والمناطق حول مدينة الجزائر وكذا الطرق والمسالك الواصلة بين المدن التي لها علاقة معينة بها.

كما أن الأهداف البحثية تقوم على المعارف والمهارات البنائية للعيون التي هي ميزة لازمت دافع تقدير حق عابري السبيل في الجزائر خلال العهد العثماني، وعليه فقد هدفنا إلى تحديد الأسلوب المعماري الذي صممت وفقه العيون –الأسبلة– في الجزائر خلال الفترة العثمانية من خلال نموذج عين بئر خادم ،دون وضع قاعدة للنمطية التي تتطلب الإلمام بعدد معين وعينات أكبر، واقتصرنا على ابراز القيم التي تتجلى من انشاء عين بئر الخادم، والتي لم يغفل الحكام وغيرهم عن الحرص على إقامتها. وتتبّع أسلوب تصميمها وما تعلّق بتنظيمها وتسييرها وضبط خدمتها. كما نهدف أيضا إلى تبيان درجة

1– سورة الأنبياء، الآية 30.

امكانية تحقيق عمارة خيرية يغلب عليها اهتمام المعماري بتنميقها بتصميم فيه كثير من رفاه الذوق والجاذبية تحقيقا للراحة والنفع.

تحديد المفاهيم: العين – السبيل (source – fontaine)[1]

نظرا لتعدّد الأسماء التي تطلق على العين –السبيل –، مما يحتم علينا أن نعرج على تحديد المفهوم المتعلق بالعين والسبيل، وحيث يوصف السبيل أنه "بناء صغير كان يخصص في الأماكن العامة وأركان الأبنية الدينية والمدنية لتسبيل الماء لأهل الحي والمترددين عليه من أصحاب المصالح وعابري السبيل ونحوهم"[2]. أما العين مرادفة للحنفيات[3] والتي كانت منتشرة في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية. أما السقاية حسب مدلولها فهي لسقي المارة، ولفظها أقرب إلى معنى السبيل مقارنة بـ "العين"، وبالتالي فإن اللفظ الذي نعتمده هو الذي يتناسب مع وظيفة المنشأة المتعلقة بتقديم الخدمة لعابري السبيل فإنّنا نرجح تسمية عين بئر خادم "بالسبيل".

المرجعيات والأبعاد القيمية لإنشاء العيون (الأسبلة):

تحقق العيون–الأسبلة– وجهة نراها جوهرية، فكلما توغلنا في دقائق البحث وتفاصيله إلاّ وتحققنا من أن الهدف الأساسي من بناءها يعود لجملة من القيم المستوحاة من الدين الإسلامي والأبعاد القيمية التاريخية والفنية. وإن سرد بعضا من المرجعيات والأبعاد القيمية التي على أساسها تحقق جانب من المنظومة العمرانية التي تعد العيون عنصر مهم في مكوناتها، دون إغفال توضيح المرجعيات التي تتعلق بمصممها، باعتبار الدافع شخصي اعتقادي. ويمكن تأكيد دافعين من تلك المرجعيات وتحديدها في عنصرين أساسيين –على سبيل الذكر لا الحصر–:

المرجعية الدينية:

تعدّ الدوافع العقائدية من أكبر الدوافع لفعل الخيرات، لاعتبار أنّ توجيه الدين الإسلامي يحضى بقدسية يرجى منها الثواب الأخروي. وبذكرنا للمرجعية الدينية فإن مؤسس هذه المنشأ الخدمية النفعية حتما فعله تحت ضابط القيم الإسلامية التي تتقاطع معها الأعراف والتقاليد الإنسانية، رجاء أجر الصدقة لعابري السبيل مصداقا للتوجيه القرآني في آيات عديدة خاصة وعامة نذكر منها" يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن سبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم"[4] وبالتالي فالامر يتعلق بمراعاة إرضاء الله و العامة.

1- Yahia Chéhabi,Vocabulaire des Therme Archeologique ,français-arabe,librairie du liban publishers,1996.

2- عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، ص. 138.

3- بلحميسي

4- سورة البقرة ، الآية 215.

المرجعية الثقافية:

وإن قلنا المرجعية الثقافية فهي التي تتكون بتفاعل المهندس المعماري والعمارة مع الفن، وهو ظاهر جدا في الأساليب الهندسية والفنية التقنية والتزينية التي اعتمد عليها في التصميم البنائي لعين بئر خادم. كما أن الاهتمام بتنميقها وإخراجها بصورتها الفنية الراقية لدليل على أوجه من تأثير الفن العثماني الذي هو جزء من كل هو الفن الإسلامي في خصائصه، كتوظيف التناظر واستخدام العناصر الرمزية الدلالية.

التصميم العام لأسبلة العهد العثماني وطرزها (مصر):

ما يمكن تأكيده أن مدن العالم الإسلامي احتضنت هذه المنشأة الخدمية، وخلال الفترة التي خضعت فيها إلى العثمانيين (حكما أو حماية) صمم السبيل وفق "طراز السبيل العثماني" وحملت عدة مواصفات منها استدارة الواجهة التي كانت من قبل مربعة أو مستطيلة فتعددت شبابيكها، وأسفل الشباك توجد فتحات للشرب على هيئة عقود صغيرة"[1].

ويتّفق الباحثون على أن السبيل في مصر خلال الفترة العثمانية عرف طرازا معينا ولكنه لم يكن من ابتكاراتهم وما ميّزه أن ألحق عدد منها ببعض المنشآت كالمسجد أو المدرسة أو صمم فوقه الكتّاب[2]. وتمكّنوا من تمييز السبيل من حيث التخطيط المعماري والعناصر الزخرفية وبرعوا في هندسة تصميمه على أساس أنّهم تأثّروا بأسبلة المماليك.[3]

وعن أقسام السبيل، فقد عرف تطورا في عمارته وفي أسلوب بناءه واحتفظت عمارته بتصميم حقق من خلال شكله وهندسته "مطلب الوظيفة" وهذا ما يلاحظ في أقسامه، حيث عرف السبيل في العهد العثماني أسلوبا خاصا في إنشاءه، حسب الحسيني "إن شئنا أن نحدد أقسامه فهو لا يخرج عن كونه "صهريج وحجرة للتسبيل" وهذا لا ينفي وجود ملاحق أخرى للسبيل تقنية وفنية"[4]. ويعدّ الصهريج القسم الأسفل[5]. ومن الأسبلة ما تحتوي على صهريج واحد وأخرى تتعداه وتقوم عليه حجرة التسبيل ،توجد في أرضيتها أحواض الشرب المزودة بشبابيك وإنّ ما ميّز الأسبلة في مصر العثمانية أنّه منها ما كان يعلوه الكتاب وأحيانا مسكنا بمدخل مستقل[6].

1- خالد عزب، فقه العمران والعمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، الدار الإسلامية اللبنانية (ب، س)، ص. 390.

2- عاصم محمد رزق، ، ص. 138.

3- يوسف البرغوثي، العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى، أمجد للنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص. 71؛ أنظر: عاصم محمد رزق، ص. 138؛ "فقد اعتنى المماليك قبلهم بعمارته وانتقل هذا الإهتمام إلى العثمانيين وإلى تركيا."

4- محمد حامد الحسيني، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، 1517-1798، مكتبة مدبولي، 1988، ص. 41.

5- تحت مستوى سطح الأرض وهو أهم قسم في السبيل.

6- خالد عزب، ، ص. ص. 387 - 391.

وعرف طراز الأسبلة وجها معماريا تطوريا متأثرا خلال فترات متقاربة – في مصر–، وهو الذي كشفته الدراسات المعمارية حيث عرف الطراز مرحلتين أساسيتين فمن عصر المماليك إلى فترة الحكم العثماني بها حيث ساد الطراز المحلي الموروث عن المماليك. وهو طراز اتضحت معالمه في شكل الواجهة وزخارفها الذي استمر حتى منتصف القرن 18م. أما المرحلة الثانية التي عرفت الأسبلة طرازا وافدا في تخطيطها وشكل واجهتها التي تأخذ هيئة نصف دائرة[1]. ومنه يمكن أن نعتبر مصر الإسلامية أهم نموذج احتضن الأسبلة، وما ميَّز تصميمها أن بها شبابيك في جوانبها وبهذا صنفت. وحسب الأبحاث التي اهتمت بطرز الأسبلة العثمانية ومنها لخالد عزب يشير أنّها "بدأت تتبلور منذ عصر السلاجقة في منطقة الأناضول. "(القرن 13م) عمارتها أكثر فأكثر في مدينة استانبول. بحجرة السبيل تطلّ على الشارع بوجهة مقوسة. وبها ثلاث شبابيك للتسبيل في دخلات ذات عقود قوسية كما كان هناك ما أصبح لها خمسة شبابيك القرن (16م) وهناك اثنا عشر شباكا في القرن 18م"[2]. ولكي يميّز السبيل في مظهره عن المبنى الذي يلحق به كان يكسى بالرخام الأبلق.[3]

الدراسات التي أحاطت بعين بئر الخادم:

باعتبار الدراسات السابقة لموضوع العيون – الأسبلة – سندا علميا يفتح مسارات بحثية متكاملة بين دراسة الأصول المعمارية والفنية وكذا نظام تسييرها تقنيا وإداريا والقوانين الضابطة لذلك في العلاقة المباشرة بين الوقف والأسبلة وتسييرها، وإن العثور على دراسة للعيون –الأسبلة– في الجزائر خلال الفترة العثمانية في مؤلّف واحد، سواء المصادر التاريخية أو المراجع المعاصرة يندر الوقوف عنده، لتبقى المصادر الفرنسية هي ما نرجع إليه والتي تطرقت إليها في إشارات مهمة، وهي الأخرى لم تحص كلّ العيون. وعن المصادر التي اعتمدنا عليها والتي ذكرت "عين بئر خادم" بهذه التسمية والتي بقي تداولا. وتضمّنت –المصادر– لوحات (رسومات) للعين في موقعها، بهيئة البناء الأصلية والطبيعة حولها. وهي أربع مصادر أساسية مهدنا بها وتتبعناها كونها تمكن من احداث مقارنة بين عمارة المنشأة والموقع في حاله الأولى والتغيرات والتحولات الحاصلة فيه في الفترة الاستعمارية الفرنسية تحديدا.

إنّ ميزة هذه المصادر أنها إخبارية لم تمدنا بتفاصيل ومخططات أو مساقط دقيقة لهندسة البناء. كما أنه من الناحية التقنية لا تتطرق إلى علاقة عين بئر الخادم بالشبكة المائية أو كمية الماء الكافية لها. وما تضمنته وبشكل مقتضب نوجزه:

المصدر الأول لـ: أ. ليسيور – و. ويلد[4]

E. Lessor - W.Wild, Voiyage Pittoresque dans la Regence d’Alger, 1835.

1– هزاع، ، ص. 234 (بتصرف).

2– خالد عزب، ، ص. 386. (بتصرف)

3– عاصم رزق، ، ص. 138.

4- E. Lessor - W.Wild, Voiyage Pittoresque dans la Regence d’Alger, 1835.

يعتبر هذا المصدر من أقدم ما اعتمدنا، وهو مهم جدا من الناحية التاريخية والأثرية فهو الأقرب إلى الفترة العثمانية، تحديدا خمس سنوات من دخول المستعمر الفرنسي إلى الجزائر، تكمن أهميته في أنّه يضعنا في الصّورة الأصليّة الأولى ويقدّم لنا الحالة الأولى التي كانت عليها عين بئر خادم.

ويحدّد هذا المصدر المسافة التي تفصل العين عن مدينة الجزائر والتي تقدر بثلاث فراسخ. ويصف المكان بأنه من أجمل الأماكن وأطيبها في نواحي مدينة الجزائر. كما أن المؤلف يصف العين وموضعها أنّها "من أشهر العيون وهو مكان منتزها مبهجا". والملاحظ وجود "مقهى" أسفل الأروقة التي تزينها.

المصدر الثاني فهو لـ: ج غابريال كولين[1]:

Gabiel Colin, les Inscriptions Arabes et Turques de l'Algérie, 1901.

هو مصدر مهم جدا من ناحية تطرقه إلى وصف اللوحة الكتابية والتي مازلت ثابتة في مكانها ملتصقة بالبناء، كما يؤكد وجود هذه العين في الساحة العمومية. وما نقف عنده هنا، الإشارة إلى وضع عمراني مخالف للأصلي بعد مرور سنوات عديدة من الإستيطان الفرنسي مما يبين أن المنطقة أُهّلت واستثمر المستعمر في المكان بشكل أصبح مدينة.

المصدر الثالث فهو لـ: هنري كلين[2]:

Henri Klein, Feuillets d'El-Djazair, 1910.

تضمّن هذا المصدر ذكرا واضحا وصريحا لمؤسّس عين بئر خادم، ومكان وجوده، كما تطرق إلى وصف عام لها. وتضمن وضعية عين بئر خادم ما بين الفترتين العثمانية والاستعمارية، من حيث أنّها تقدم الخدمة للإنكشاريين وكلّ المسافرين، كما يتضح بشكل جلي أن الجيش الفرنسي استغل هذه العين واستفاد من خدمتها. وهي الفترة التي لم يصبح فيها المكان بعد وسطا ومركزا لمدينة واضحة المعالم هي "بئر خادم" حاليا.

المصدر الرابع فهو لـ: جورج مارسي[3]

Georges Marçais, L'Architecture Musulmane d'Occident, 1954.

يتطرّق هذا المصدر إلى ذكر العيون ومنها عين بئر خادم. ويصف واجهتها الرئيسية فقط.

أمّا **المراجع الحديثة** التي أشارت إلى هذه العين، فيمكن الإشارة إلى: ناصر الدين سعيدوني، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر، 2014[4]، حيث يصفها: "ترسم أقواسها مقهى عربيا"، كما يذكر حوضين "لشرب خيول المسافرين بين مدينتي الجزائر والبليدة" وهما الحوضين اللذين للأسف فقدا وظيفتهما الأصلية وحولا لوظيفة أخرى تزينية. إضافة إلى دراسة عينة من طرف علي بن بلة في تحليل معماري

1- Gabiel Colin, les Inscriptions Arabes et Turques de l'Algérie, 1901.
2- Henri Klein, Feuillets d'El-Djazair, 1910.
3- Georges Marçais, L'Architecture Musulmane d'Occident, 1954.
4- ناصر الدين سعيدوني، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني، (1791-1830)، البصائر، 2014.

لعين تقصراين، والذي حدد اشتراك عيون فحص باب عزون والتي منها عين بئر خادم، في أنها جمعت بين شرب المسافرين وشرب الدواب في أحواض خاصة وأنها استغلت أيضا لسقي الأراضي.[1] كما ذكرها علي خلاصي: العمارة العسكرية العثمانية لمدينة الجزائر. مع عدد من عيون الفحص موضحا أنّها "تكون إما تابعة لمبنى عمومي مثل المساجد والثكنات وإمّا منفردة، وكانت وقفا للمسلمين، يشرف عليها محافظ العيون"[2].

يمكن إرجاع ندرة الأبحاث والدراسات الخاصة بالعيون الأسبلة في الجزائر خلال الفترة العثمانية كونها من المواضيع المتعلقة بالماء وهذا الأخير من المجالات التي تتطلب أبحاثا تقنية لكشف كيفية وأساليب إيصال الماء وكذا صرفه وتتبع الشبكة المائية الخاصة بذلك.

وإذا ذكرنا المراجع العامة، والتي اهتمت بتتبع الأسبلة وهنا تحديدا المراجع التي تذكر الأسبلة في مصر العثمانية، منها، محمود حامد الحسيني، الأسبلة العثمانية لمدينة القاهرة (1517-1798)، مكتبة مدبولي، 1988.[3]

اللوحات والصور ذات المدلول الأثري:

أفادتنا اللوحات والصور الأرشيفية المدرجة في المصادر المكتوبة أو في شكل وثائق أرشيفية في الاستدلال على أصلية موضع المعلم وأصلية تصميمها. كما أنّها تتّفق في رسم الهيئة المعمارية العامة لعين بئر خادم. وعموما فمن خلال اللّوحتين (الصورة: 01) (الصورة:02) (الصورة: 03) أمكن تحديد مايلي:

- تتوسّط العين المبنى الذي خلفها وتتقدمه.
- طبيعة المكان والذي كانت فيه العين وهو خارج المدينة - في فحص مدينة الجزائر-.
- اخضرار المكان وملائمته لاستراحة المارة والمسافرين ودوابهم.

1- علي بن بلة، عين تقصراين، (نموذج لعيون فحص مدينة الجزائر خلال العهد العثماني)، مجلة الدراسات الأثرية، المجلد 11، رقم1.

2- على خلاصي، العمارة العسكرية العثمانية لمدينة الجزائر، المتحف المركزي للجيش، الجزائر، 1985، ص. 20.

3- محمود حامد الحسيني، الأسبلة العثمانية لمدينة القاهرة (1517-1798)، مكتبة مدبولي، 1988.

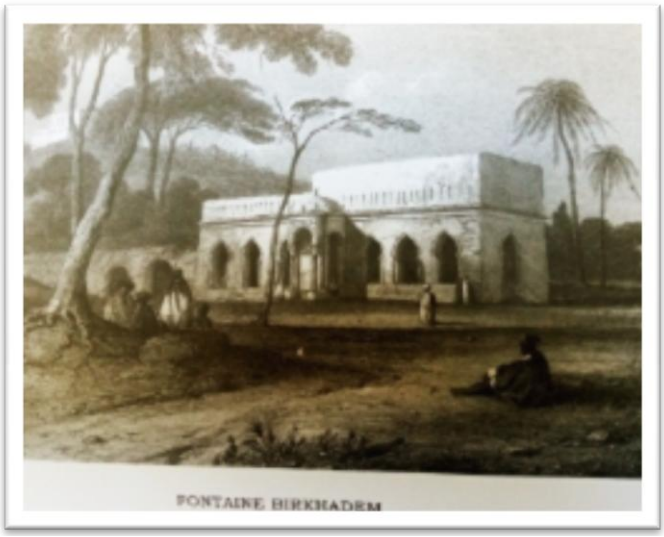

(الصورة: 01) عين بئر الخادم ملاصقة للمقهى خلفها. عن: ل. لسيور

(الصورة: 02) عين بئر الخادم في الفترة الإستعمارية عن: Henri Klein

كما أمكن تبيان الحوضين الجانبيين وهما مكشوفين على هيأتيهما الأصلية تتقدّمهما كتل حجرية وكانت في جانبي المنشأة أيضا وخصصت كمرابط للخيل والدواب.

(الصورة: 03) عين بئر الخادم (أرشيف حصن 23)

عين بئر الخادم:

تقع عين بئر خادم في بلدية بئر خادم التابعة حاليا لمقاطعة الجزائر العاصمة. ولم تكن هذه الضاحية مدينة واضحة التقاسيم خلال الفترة العثمانية وإنما كانت فحص من فحوص مدينة الجزائر. وكان انشاء القصور في هذا الفحص لاستغلال مناخه ومناظره وقربه من تقصرين حيث وجد قصر الداي.[1]

كانت العين في الطريق الرابط بين مدينتي الجزائر والبليدة (خريطة: 01) وهو نفس الطريق الرئيسي نحو الصحراء. وفي إشارة مهمة إلى أنّه كانت هناك حركة تجارية وإدارية وحركة للمسافرين في هذا المسلك ممّا دعى إلى تزويد هذا الطريق بخدمة الماء للشرب وجعله محطة توقف وراحة لعابري السبيل وسقي دوابهم.

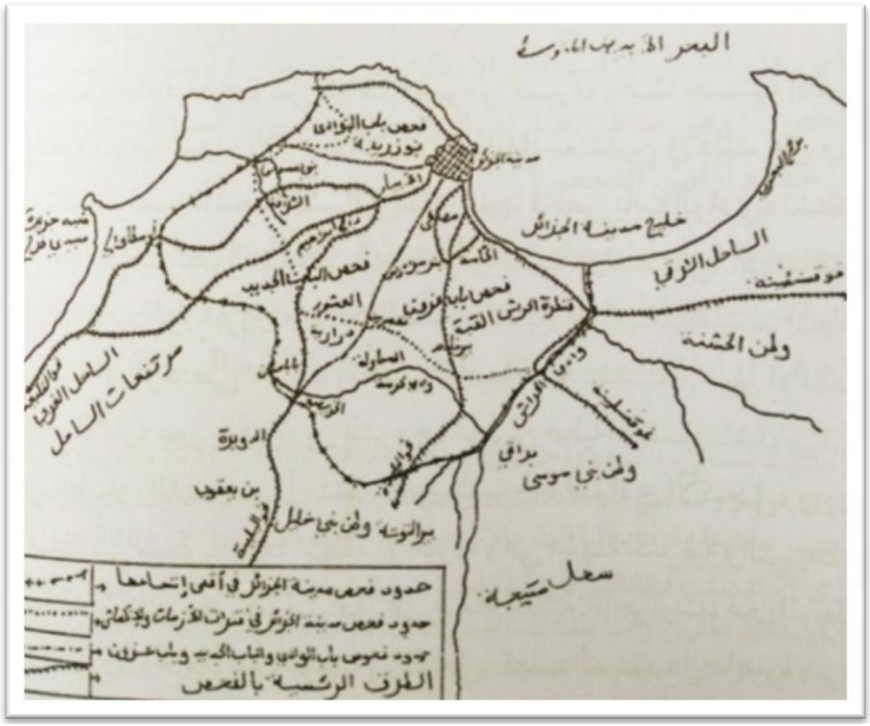

(الخريطة: 01) فحوص مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية (سعيدوني)

أخذت "بئر خادم" تسميتها من البئر التي لا تبعد كثيرا عنها (في الجهة المقابلة لها)، وتعود تسميتها الأصلية لخادم حسين باشا والذي كان يقوم عليها، فقد كانت التسمية الأصلية هي بئر الخادم (بالألف واللام).

في سنة 1833، تنبه الجنرال كلوزيل للأهمية الإستراتيجية لموقع بئر الخادم الموصول بالماء ومنه اعتمده كمركز استعماري. كما أن دوزات (1839) انبهر بالمكان الذي توجد فيه العين فعمد إلى غرس أشجار الصفصاف والصنوبر لتظليل المكان للإستمتاع به واستغلاله أكثر، فكانت البوادر الأولى التي

1- للاستزادة أنظر: Achoure Cerfi, Dictionnaire des Localites D'Algerie (villes, ksars et duares ,hameaux, mechtaset lieux-dits), Casba, Alger, 2011.

مهدت إلى تأهيل هذا الموضع تعميره تدريجيا. فبدءا من الفترة الاستعمارية تصبح العين في وسط مدينة بئر خادم بعد تأسيسها الفعلي كمدينة. (الشكل: 01)

(الشكل: 01) مخطط النسيج العمراني لمركز بئر خادم (1843) (بتصرف)

تأسيس عين بئر خادم:

لم تعرف عين بئر خادم خلافا في تأسيسها، حيث تعد اللوحة التأسيسية الحاسم في الأمر، والتي ما زالت مثبتة بالبناء إلى يومنا هذا. ومما تضمنته اسم حسن باشا وهو الآمر بالإنشاء، أمر بذلك عن طيب نفس تتمنى سعادة الآخرة، صدقة عن نفسه وتقديرا لخدمة عابري السبيل الذي أوصى به الدين الإسلامي الحنيف. كما تضمنت الكتابة سنة تأسيس هذه المنشأة الخدمية وهو (1212هـ).

اللّوحة التأسيسية:

إن اللّوحة في وضعية سليمة، بخط هو الآخر واضح تماما، نفذ بالخط النسخي باللغة العثمانية[1]، ونفذت الكتابة ضمن خمسة خراطيش سهلت انتظام الكتابة داخلها[2]، (الصورة:04). يتراوح قياس اللوحة 0,54م ارتفاعا و0.84م عرضا. وهي من الدلائل المباشرة لوقفية العين.

1- تعبير عن الفن الكتابي الزخرفي السائد في اللوحات التأسيسية في الجزائر خلال الفترة العثمانية.

2- يجدر التنبيه أنّ الخط الأفقي الظاهر بين السطرين الرابع والخامس هو للوتد المعدني الذي يدعم المبنى جراء أعمال الصيانة والترميم.

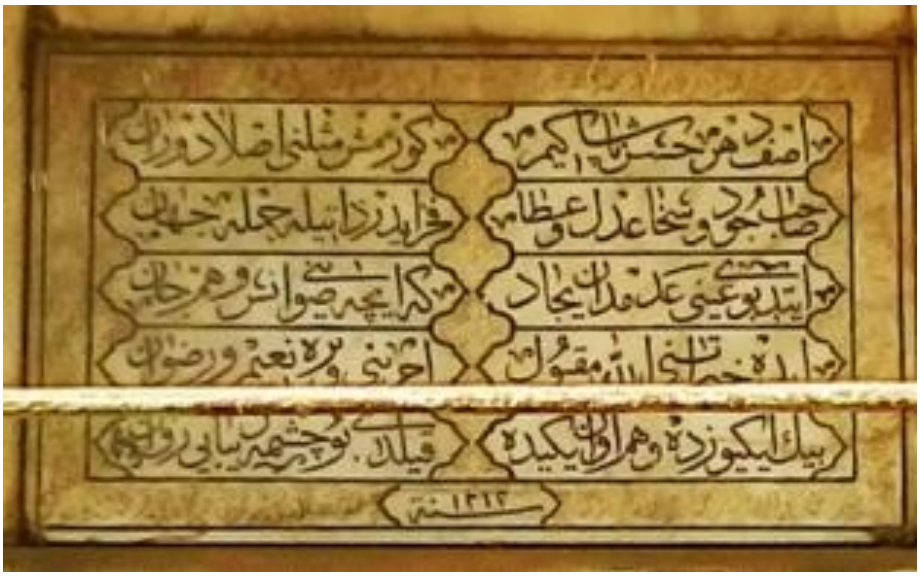

(الصورة :04) اللوحة التأسيسية لعين بئر الخادم

هذا نصها:

أصف دهر حسن باشا كيم	كورمش مثلني أصلا دوران
صاحب الجود وسخا عدل وعطاء	فخر ايدرن اتيله جله جيهان
ايتدى بو عيني عدندان ايجاد	كه ايجه ني صوانس وهم جان
ايده خيراتني الله مقبول	اجريني ويره نعيم و رضوان
بيك ايكوزده وهم اوان ايكيده	قيلدي بوجشمه سبيلنه روان

سنة 1212هـ

ترجمتها إلى اللّغة العربية[1] كما يلي:

لم يعرف ولن يعرف الزمان مثل حسن باشا، صاحب الجود والسخاء والعدل والعطاء الذي يعتبر بحد ذاته فخر العالم، هو من قام بتأسيس هذه العين التي تنبع من جنة عدن، يا رب أكرم بالساقي والشارب منها. وتقبل الله احسانه وجزاه نعيما ورضوانا، وقد جعل هذه العين وقفا في سبيل الله. في ألف ومئتين واثنى عشر (1212هـ).

الوصف العام للعين:

إنّ المعاينة الأولية للعين تجعلنا في وضع الدهشة العلمية المتفحصة والمتخصصة، حيث يظهر تصميمها تكاملا فنيا معماريا، بهندسة وتشكيل فني متقن. وهي متميزة عن المباني المدنية الأخرى في صغر المساحة التي تشغلها. وهي ملفتة للانتباه من الشكل العام إلى أدق التفاصيل، بحيث أن كل قطعة ركبت بجانب قطعة أخرى بشكل متناظر في قمة الإتقان وفي انسجام حقق تناسق بنائي يمكن أن يوصف بميزة الجمال (الصورة: 05) (الشكل:02). وقد كسيت كلّ الواجهة الرئيسية للعين بالرخام. وتقابل

1- ترجمة: الدكتورة نادية شرفاوي، (تخصص أثار اسلامية).

هذه الواجهة الجهة القبلية وتتركز فيها معظم العناصر المعمارية الداعمة، كالعمودين الحلزونيين الرخاميين على الجانبين واللذين يعلو هما تاج بلفائف حلزونية أسفلها زخرفة لزهرة، ويرفعان عقدا نصف دائريا. (الصورة: 06) (الصورة: 07)، وهو التصميم المعمول به في مداخل العمائر في الجزائر خلال الفترة العثمانية . كما تحلى أعلى الإطار بعناصر زخرفية نفذت بالنقش البارز منها الزهرة والهلال وهي من الزخارف ذات المدلول الرمزي لدى العثمانيين. وحسب علي خلاصي فإن "...التأثيرات العثمانية... جاءت مع الزخارف وما يرتبط بالمواد الإنشائية... وفي التيجان والأعمدة... ومعظمها جاء على هيئة محورة"[1].

سمحت المقارنة بين الصور التي أنجزت في الفترة الإستعمارية والتي عاينت المرحلة الأصلية لبناء العين مع الصور التي أخذت حاليا بالاستدلال على العناصر الأصلية وكذا استخلاص ما استقرت عليه الكتلة البنائية، وتلك التي غيرت وظيفتها.

(الصورة: 05) الواجهة الرئيسية لعين بئر الخادم

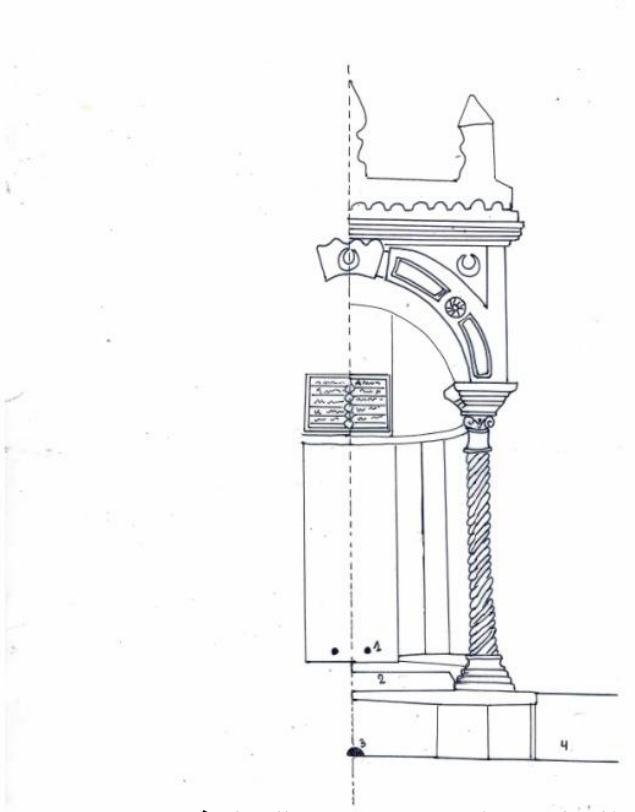

(الشكل: 02) تصميم توضيحي للتناظر في تصميم الواجهة الرئيسية

1- علي خلاصي، القلاع والحصون في الجزائر، المنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث، الجزائر، 2008.

(الصورة: 06) التاج فوق العمود الحلزوني

(الصورة: 07) جزء من الإطار

يتقدّم المبنى حوض رخامي تقدر فتحته بـ 70سم، (الصورة: 08) يصبّ فيه الماء المنبعث من أنبوبين نحاسيين واللذين بقي موضعهما فقط.

(الصورة: 08) الحوض الذي يتقدم العين

تتشابه الواجهتين الجانبيتين في وجود مدخلين يعلوهما قوس نصف دائري يرتكزان على الجدار مباشرة (الصورة: 09) .(الشكل: 03). أما الواجهة الخلفية فهي ضمن جدار المسجد خلفها، بها مدخل معقود.

(الصورة: 09) الواجهة الجانبية واضحة مقارنة بالوضعية الحالية .(صورة أرشيفية)

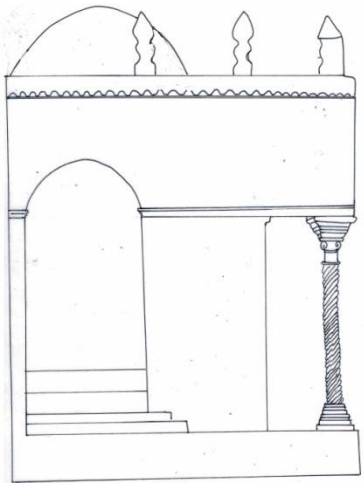

(الشكل: 03) تصميم جانبي للعين

توّج أعلى البناء بشرافات وسقّف أعلى المبنى بقبة، قمنا بمعاينتها من داخل المنشأة، فهي ثمانية الأضلاع تقوم على مثلثات ركنية. (الصورة: 10).

(الصورة: 10) القبة الثمانية الأضلاع ومراكز الانتقال

الحوضين الجانبيين:

يظهر تخطيط المنشأة قسمين رئيسيين متكاملين هما القسم الأوسط والذي تشغله العين والجانبين هما الحوضين الجانبيين واللذين يتميزان باتّساعهما، وكانا مخصصين لشرب الدواب، تتقدّمهما كتل حجرية كانت مخصصة لربط الخيول، حاليا لا أثر لها. **(الصورة: 11)**، **(الشكل: 04)**.

(الصورة: 11) الحوض على جانب العين (صورة ارشيفية) مكررة.

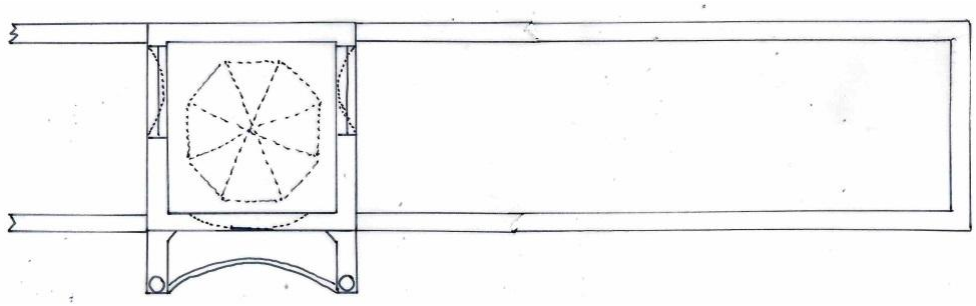

(الشكل: 04) المخطط الأرضي لعين بئر خادم.

مواد البناء:

إنّ المواد البنائية عامل مهم في تقوية البناء ومتانته، وفي منشأة عين بئر خادم نجد الرئيسية هي الحجارة وهذا في قسمها السفلي، بينما أدرجت قطع الآجر في الأجزاء العلوية من البناء. (الصورة: 12) (الصورة: 13)، واستدلينا على مادتي البناء من من خلال ما أفادنا به من شاركوا في أعمال صيانة جدار المسجد الملاصق للعين. ويعتقد أن جلب الحجارة كان من مقالع الحامة.

(الصورة: 12) جزء من الجدار مكشوف تظهر من خلاله قطع الآجر

(الصورة: 13) جزء من الجدار مكشوف تظهر من الحجارة و قطع الآجر

كما تدخّل الرخام كمادة أساسية والذي اعتمد في تكسية كل الواجهة الرئيسية وأرضية المبنى بما فيها المساحة التي تتقدم المدخلين الجانبين. استخدم الرخام الأبيض لتناسبه مع هذا النوع من الأبنية نظرا لسهولة تشكيله وتقطيعه وتنظيفه. ولما يعرفه من الصلابة والمتانة والمقاومة. ويرجح ان مادة الرخام كانت تجلب في اطار التبادل التجاري خاصة بين الجزائر والجمهوريات الإيطالية. والملاحظ على القطع

كلها (الرخام) أنّها حليت حسب مقاييس محددة تتلائم والموقع المهيء لاستقبالها.[1] وما يمكن الإشارة اليه انعدام البلاطات الخزفية في عين بئر خادم والتي كسيت بها عيون أخرى.[2]

مصادر تزويد العين بالماء:

يجرنا الحديث عن تزويد عين بئر خادم بالماء إلى الحديث عن مصادر المياه في مدينة الجزائر وفحوصها، والتي تعددت ما بين الينابيع والآبار والأودية، حيث كان يتم ايصال الماء للإنتفاع به عبر قنوات وقناطر. ونظرا لوقوع بئر خادم في سهل منخفض، سهل جلب الماء إليها عبر قنوات من تقصرين خاصة. ولم تكن تتغذى من البئر القريبة منها، فإذا نظرنا إلى سعة الحوضين على جانبي العين واللذين يتطلبان سعة كبيرة من الماء، لأدركنا صعوبة ملأهما من البئر. ومع عدم امكانية الكشف عن موضع تخزين الماء ضمن المنشأة يعتقد أنها مزودة بخزان أو صهريج منه يصدر الأنبوب النحاسي المخصص للشرب والذي يصب في الحوض الذي يتقدم البناء.

بيَّن تتبع نظام تشغيل الأسبلة خلال العهد العثماني عموما، أنّها سارت على كيفيتين أساسيتين توفرت في معظم أسبلة العهد من ناحية كيفية تقديم الخدمة لعابري السبيل. حيث اعتمد فيها استخدام "كيزان" الشرب المربوطة بسلاسل واستخدم "بزبوز" من النحاس، يخرج من لوح رخامي، يشرب منه بالفم مباشرة[3].

الخاتمة:

إنّ المعالج لموضوع عين بئر الخادم يجد نفسه أمام جوانب متكاملة من عمارة ولوحة تأسيسية، زخارف ومادّة بنائية. فقد أمدتنا بفوائد بحثية نظرية وفنية وتقنية، وعليه فإن ارتباط العين بالمنظومة العمرانية للجزائر خلال الفترة العثمانية كفيل بأن يعكس مدى تكامل الاهتمامات لتحسين مختلف الأوضاع العامة.

عكس التّصميم البنائي لعين بئر خادم اتفاق الفن في الجزائر خلال الفترة العثمانية، حيث جمعت في تصميمها بين العناصر البنائية التي اعتدنا عليها في عدد من المنشآت الدينية والمدنية، حيث اعتمد في واجهتها الأعمدة والتيجان والعقد نصف الدائري وليس هذا فحسب وإنّما مثّلت عنصرا مهما في توفير الماء من خلال نظام جلب المياه وتوزيعها وتسبيلها. وعموما تعدّ العيون – الأسبلة. من جملة المنشآت المدنية التي لها وقع في تحسين الأوضاع المعيشية، لما توفره من أعمال الخير والإحسان والنفع العام.

1- أنظر: علي خلاصي، القلاع والحصون في الجزائر، المنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث، الجزائر، 2008.

2- أنظر: علي بن بلة، عين تقصراين، .

3- خالد عزب، ، ص. 390.

البيبليوغرافيا:

- البرغوثي يوسف، العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى، امجد للنشر والتوزيع، عمان، 2016.
- الحسيني محمد حامد، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، 1517-1798، مكتبة مدبولي، 1988.
- خالد عزب، فقه العمران والعمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، الدار الإسلامية اللبنانية (د.ت).
- خلاصي علي، العمارة العسكرية العثمانية لمدينة الجزائر، المتحف المركزي للجيش، الجزائر، 1985.
- راجعي زكية، مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، دراسة أثرية معمارية وفنية، معهد الآثار، جامعة الجزائر،2007.
- سعيدوني ناصر الدين، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني، (1791-1830)، البصائر، 2014.

الرسائل والأطروحات الجامعية:

- بن حموش مصطفى، المدينة والسلطة في الإسلام (نموذج الجزائر في العهد العثماني)، الجزائر، 2013.
- خلاصي علي، القلاع والحصون في الجزائر، المنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث، الجزائر، 2008.

المجلات:

- بن بلة علي، عين تقصراين (نموذج لعيون فحص مدينة الجزائر خلال العهد العثماني)، مجلة الدراسات الأثرية، المجلد 11، رقم 1.
- سعيدوني ناصر الدين، فحص مدينة الجزائر (نوعية الحياة الإقتصادية والإجتماعية عشية الإحتلال)، مجلة الدراسات التاريخية، المجلد 1، رقم 1.
- مباركي نادية، إطلالة على التجهيز المائي بمدينة الجزائر ومرافقها المائية خلال العهد العثماني، على ضوء مصادر غربية ووثائق محلية من الرصيد العثماني، مجلة دراسات تراثية، مجلة علمية سنوية محكمة يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر2- أبو القاسم سعد الله، العدد 11، 2017.

- المعاجم والقواميس:

- محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، 2013.

المصادر الفرنسية:

- Colin Gabiel, les Inscriptions Arabes et Turques de l'Algérie, Paris,1901.
- Klein Henri, Feuillets d'El-Djazair, tome 2, 1910.
- Lessor E., Wild W., Voyage Pittoresque dans la Régence d'Alger, 1835.
- Marçais Georges, L'Architecture Musulmane d'Occident 1954.

القواميس:

- Cerfi Achoure, Dictionnaire des Localites D'Algérie (villes,ksars et duares, hameaux, mechtaset lieux-dits), Casba, Alger, 2011.
- Chéhabi Yahia, Vocabulaire des Thermes Archéologiques, français-arabe, librairie du Liban, publishers, 1996.